ابن الرومي
الشاعر المصور
للأستاذ عبد الرحمن شكري

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

وترى ابن الرومي بالرغم من إطالته في المدح وإكثاره فيه يذم هذه الخطة فيقول :

وإذا امرؤ مدح امرأً لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه

ويقول للممدوح :

فإن الله أعلى منك جـــدًّا ... ويرضيه من الحـمد اليسيرُ

على أن له بالرغم من كل ذلك مقدرة كبيرة على توليد معاني المدح كما في الأبيات التي يقول فيها :

والناس تحت سماء منك مُشْمِسَةٍ
والنـــاس تحت سماء منك مدرار

فيتتبع هذه المعاني الثائمة ويولد منها معاني أخرى ، وله الأبيات التي يقول فيها :

هب الروض لا يثنى على الغيث نشره
أمنظـــرة يُغْنِي مآثره الحُسْنى

والتي يقول فيها :

له هيبـــة لم يكتسبها بكلفـة
إذا اكتسبت ذاك الوجوهُ العوابس

والتي يقول فيها :

آراؤكم ووجوهُكم وسيوفُكم ... في الحادثات إذا دَجَوْنَ نجوم

والتي يقول فيها :

خِرْقٌ تَعَرَّضَتِ الدنيا له فصبا
إلى المكارم منها لا إلى الفـــتن

له حريم إذا ما الجار حل به ... أضحى الزمان عليه جد مؤتمن
كأنه جنـــة الفردوس قد أمنت
فيها النفوس من الروعات والحَزَنِ

ولكن أهاجيه بالرغم من ذلك أبرع وأشد أثراً ، وهو فيها أكثر ابتداعاً للمعاني والخيالات ، وأحياناً يسوق فيها الأخيلة الفكاهية مترادفة ويولد الذم من الذم والهجاء من الهجاء وينتشي بالهجاء ويعربد كل عربدة ويطلق لنفسه العنان كراكب الجواد الذي يطلق العنان لجواده يعدو ما شاء العدو. ومن شعره المشهور في الهجاء قوله :

ولو يستطيع لتقتيرِهِ ... تَنفّس من منخر واحد

وقوله :

إن للجد كيمياء إذا ما ... مسَّ كلباً أحالهُ إنسانا

وقوله :

فلو لم تكن في صُلبِ آدم نطفة ... لخر له إبليس أول ساجد

وقوله :

لو كنتمُ صحتي وعافيتي ... فررتُ من قربكم إلى السَّقمِ

وقوله في هجاء طبيب :

سلَّط الله عليه طبَّهُ ... وكفاه طبه لا بل كفاني

وقوله :

وأخرق تضرمه نفخةٌ ... سفاها وتطفئه نفـلة

وقوله :

وقال اعذروني إن بخلي جبلةٌ
وإن يدي مخلوقة خلقة القفـل
طبيعة بخـل أكدَّتها خليقـة
تخلَّقتُها خوفَ احتياجي إلى مثلي

وقوله : وقد أبدع واستطرد في وصف صور السعادة التامة وتصويرها تصويراً بارعاً كي يقول : إن سعادة الناس التامة لا تقتضي الشكر عليها ما دام المهجو منهم ، فانظر إلى براعة الرسم والتصوير في قوله :

ما كرَّمَ الله بني آدم ... إذ كان أمسى منهمُ خالد
والله لو أنهمُ خلِّدُوا ... حتى يبيـد الأبد الآبد
وأصبح الدهر حفياً بهم ... كأنه من برِّهِ والد
ولم يكن داء ولا عاهة ... فالعيش صافٍ شربه بارد
ودامت الدنيا لهم غضة ... كأنهـــا جارية ناهـد
ما كلَّفوا الشكر وقد ضمهم ... وخالد اللؤم أب واحـد

على أن هذا كله أهون ما في شعره من الهجاء ، وأسهل تحملاً من فحشه الذي أطلق لنفسه العنان فيه وخلع الحياء ، وأتى بأشد

مما جاء به كل الشعراء . فلا الخطيئة ولا الأخطل ولا جرير يدانيه فى الهجاء ، وهو مع ذلك أحياناً يخلط الهجاء بالحكمة والمثل كما فى قوله :

تَوَقَّ الداء خيرٌ من تصدِّ
لأيسره وإن قرب الطبيب

وكما فى الأبيات المشهورة التى يقول فيها :

رأيت الدهر يرفع كل وغد
ويخفض كل ذى شَيَمٍ شريفه
كمثل البحر يغرق فيه حى
ولا ينفكُّ تطفو فيه جِيفه
أو الميزان يخفض كل وافٍ
ويرفع كل ذى زَنَةٍ خفيفه

فترى أنه مُغْرًى دائما بتتبع الصور وبالتصوير سواء أكان ذلك فى مدحه أو ذمه. وتظهر مقدرته على التصوير أعظم ظهور فى وصفه الأزهار أو الأنهار أو الأشجار أو القفار أو الرياح أو السماء أو السحاب أو الفواكه أو الروائح أو المأكولات ، وله فى كل هذه الأشياء أشعار كثيرة . أنظر إلى وصفه للنسيم :

وشمأل باردة النســـيم
تشفى حزازات القلوب الهيم
كأنها من جنة النعيم

وقوله فى وصف الأرض والمطر :

أصبحت الدنيا تروق من نظرْ
بمنظر فيه جلاء للبَصَرْ
أثنت على الأرض بآلاء المطر
فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نَيِّرَةَ النوار زهراء الزَّهَرْ
تَبَرَّجَتْ بعد حياء وخَفَرْ
تَبَرُّجَ الأنثى تصدت للذكر

ويقـــول فى غروب الشمس :

كأن خُبوَّ الشمس ثم غروبها
وقد جعلت فى مجنح الليل تمرض
تخاوُص عينٍ مس أجفانها الكرى
يُرَنِّقُ فيها النوم ثم تُغَمِّضُ

ومن بدائعه القصيدة التى يقول فيها (حيتك عنا شمال طاف طائفها) والتى يقول فيها : (ورياضٌ تخايلُ الأرض فيها) والتى يصف فيها النرجس والورد فى قوله (للنرجس الفضل المبين لأنه) والأخرى التى يصف فيها فواكه إيلول ويقول : إنه لولاها لزهد فى الحياة . وله القصيدة البديعة التى يصف فيها غروب الشمس وأول وصفها قوله فيها :

وقد نَفَتْ شمس الأصيل ونفَّضت
على الأفق الغربىِّ ورسا مذعذعا

وفيها يتخيل أن الشمس تودع النبات ويودعها النبات وكأن كلا منهما يحس لوعة الفراق . ويخيل إلى أنه لو كان نقاشا لرسم

من وحى القلم

يقع لى أحياناً أن أهبط محلاً عاماً فيتقدم إلىّ شخص لا أعرفه ، يحيينى تحية رقيقة ويقول : « أحد قرائك المعجبين » ثم يمضى دون أن يزيد . ويحدث لى دائماً فى كل عيد أن أفض البريد فأجد بطاقات التمنيات ورسائل التهانى كأنها باقات الورد من قراء كرام لم تبصرهم عينى ولم يرونى إلا فكرة تعيش فى سياج السطور على أديم الصفحات

هنا معنى الاتصال الروحى ، أرفع ألوان الاتصال ، وأسمى أنواع المشاعر . وإنى ليملؤنى العجب حيناً ، ويداخلنى الزهو أحياناً إذ أجد فى الشرق مثل هؤلاء القراء !

لكن مهلاً ... فيم العجب ؟ ألسنا القائلين إن الشرق هو قلب « الروحانية » النابض ؟

إنما المدهش حقاً هو أن نرى قراء الغرب يمطرون كل صباح ملايين الرسائل إلى كتابهم المحبوبين ! نعم أين هذا الاتصال الروحى من ذاك ! إذا قلنا إن الفرق فى عدد القراء وانتشار الأمية أو التعليم لكذبتنا النسب والأرقام ، ولتبين لنا آخر الأمر أن الشرق متخلف فى هذا المضمار على كل حال .

إن عيب الشرق هو « الكسل » . والقارئ الشرقى على وجه عام رخو المزاج فاقد النشاط . إنه يطالع وتتأثر نفسه ويتفتح قلبه ، ثم لا يلبث أن يتثاءب ويلقى الكتاب وينسى المؤلف وتخمد فيه الجذوة . ثم هو بعد ذلك كثير الإهمال قليل الاكتراث . فأين القوة الداخلية التى تدفعه إلى طلب الاتصال بذلك الروح الذى أنس إليه ؟

إنه « يستهلك » مادة الكتاب مثلما يستهلك مادة الطعام دون أن يلق بالاً إلى الطاهى الذى أعده لمائدته . وهكذا ينكشف الأمر عن هذه النتيجة العجيبة :

إن روحانية الشرق قد هبط بها « كسل النفس » إلى المادية ، وإن مادية الغرب قد ارتفع بها « تيقظ النفس » إلى الروحانية !

توفيق الحكيم

ونقش صورة مملوءة بالحياة كأبدع ما صنع المصورون فى معنى هذه القصيدة، ولكن ما أحسب أن مصوراً يأتى بأحسن مما جاء به فى الشعر، وله وصف العنب الأبيض الذى يقول فيه :

لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحرور إلا ضياء فى ظروف نور

وله فى وصف الخمر :

لطفت فقد كادت تكون مُشاعَةً فى الجو مثل شعاعها ونسيمها

وأمثال هذا الوصف كثير فى شعره. وهو مصور أيضاً فى غزله. أنظر إلى وصفه محاسن النساء فى قصيدة (أجنت لك الورد أغصان وكثبان) ووصفه الجمال والغناء فى قصيدته الدالية فى وحيد المغنية وهى التى يقول فيها : (ياخيالىَّ تَيَّمَتْنى وحيد) وكأنما هو فيها يُصوِّرُ الألحان كما يصور الوجوه الحسان. ومن بدائعه فى الغزل قوله : (وحديثها السحر الحلال لو انه) وقوله : (لو كنتَ يوم الفراق حاضرنا) وقوله : (لا تكثرنَّ ملامة العشاقِ) وقوله : (وفيك أحسن ما تسمو النفوس له) وقوله : (شفيعك من قلبى شفيعٌ مُشَفَّعُ). وله غزل كله شهوة، وله مجون شنيع، وكان يفتخر بالقدرة الجثمانية على اللذات. وهذا كله لا يليق نشره ولكن له مع ذلك غزلاً وجدانياً رقيقاً، فهو قد جمع الأطراف لأنه كان مرهف الإحساس كما كان مرهف الحواس وتراه يجمع الوجدان والتصوير فى قوله فى حب الوطن :

بَلدٌ صحبتُ به الشبيبة والصِّبا ولبست فيه العيش وهو جديد

فإذا تمثَّل فى الضمير رأيته وعليه أفنان الشباب تميد

فهنا أيضاً نزعة التصوير غالبة عليه فى البيت الثانى. وله أشعار أخرى فى حب الوطن، ولا غرو فإنه كان يعشق الأسفار. ومن رأيى أن تحسُّرَ ابن الرومى على ذهاب الشباب ليس له مثيل فى شعر الشعراء وإن كانوا قد أكثروا فى هذا الموضوع. وأحسن قصائده فيه قصيدته التى يقول فيها (كفى بالشيب من ناهٍ مطاعِ) ومن أبياته فيها، وقد غلبت عليه النزعة إلى التصوير فى هذه الأبيات:

يُذَكِّرُنى الشبابَ جنانُ عدن على جنبات أنهار عِذابِ

تفيءُ ظلها نفحات ريح تهز متون أغصان رطاب

إذا مَاسَت ذوائبها تداعت بواكى الطير فيها بانتحاب

يذكرنى الشباب وميض برق وسجع حمامة وحنين ناب

وكانت أبكتى ليدٍ اجتناء فصارت بعده ليد احتطاب

وهو لا يكتفى بما يكتفى به غيره من جعل الحياة بعد الشباب كالموت بل يقول إنها عذاب. وله قصائد أخرى فى التحسر على الشباب منها قصيدة (دَابَرَ أو طارَهُ إلى الذِكَر) و(خليلىَّ ما بعد الشباب رزية) و(لا تَلْحَ مَنْ يبكى شبيبته) و(أيام استقبل المنظور مبتهجاً) وقوله :

اكتهلتْ همتى فأصبحتُ لا أبـ

ـهج بالشىء كنتُ أبهج بِهْ

وَحَسْبُ من عاش من خلوقته خلوقة تعتريه فى أَرَبِهْ

وهذا الرجل المهموم بمحاسن الحياة ولذاتها، المولع بوصف مباهجها وفتنها وأطايبها، له حالات إذا وصف فيها الزهد أتى بالقول المؤثر، كما فى قصيدته فى وصف الزُّهَّادِ، وهى قد جمعت أيضاً بين التصوير والوجدان، وهى التى يقول فيها :

تتجافى جنوبهم عن وَطِىءُ المضاجعِ

ولكن الجمع بين التهافت على الملاذ فى وقت من أوقات الحياة وشدة الشعور الدينى فى وقت آخر أمر مشهود؛ وقد يتردد صاحبهما بينهما مرات عديدة.

وقصائد ابن الرومى فى الاخوان والعتاب متنوعة الأغراض والمعانى والألوان والصور. وأشهرها قصيدة : (يا أخى أين ربع ذاك اللقاء) وفيها يتخيل مناظرة ونقاشاً طويلاً بينه وبين هنات صاحبه، وهى بارعة فى التصوير والتفكير؛ ولكن له من القصائد ما هو أكثر وجداناً وعاطفة، وله مقطوعات موسيقية كقوله :

طلبتُ لديكم بالعتاب زيادة وعطفاً فأعتبتم بإحدى البوائق

فكنتُ كمستسقٍ سماء مخيلة حيا فأصابته بإحدى الصواعق

وقوله :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنَّ من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه يحول من الطعام أو الشراب

والأبيات التى ذكرت من قبل وأولها : (تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا) وهى من أبدع ما قال فى العتاب الوجدانى، وكذلك قوله : (أتانى مقال من أخ فاغتفرته). وقوله : (إنى لأغضى

عن الزلات مجتنباً) . وكثرة العتاب فى شعره تدل على أنه كان منكوباً فى الإخاء والأنصار . وقد أجاد ابن الرومى أيضاً فى الرثاء لأنه كان منكوباً فى أولاده ، وإنما هذه نكبة الرزء والموت لا نكبة الجفاء التى دعت إلى إجادة العتاب ، ولا أذكر قصيدة فى رثاء الأبناء فى اللغة العربية تقارب قصيدة ابن الرومى الدالية فى رثاء ابنه الأوسط غير قصيدتى التهامى ، ومطلع قصيدة التهامى الأولى :

حكم المنية فى البرية جارى ما هذه الدنيا بدار قرار

ومطلع الثانية :

أبا الفضل طال الليل أم خانني صبرى
تخيَّلَ لى أن الكواكب لا تسرى

وفيهما يرثى ابنه كما رثى ابن الرومى ابنه بقصيدته التى أولها مخاطباً عينيه :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يُجدِى ... بجودا فقد أودى نظيركما عندى

وتغلب نزعة الرسم والتصوير على الشاعر ، فيصف ابنه يعالج المرض والموت ، ويصف حزنه إذا رأى أخويه يلعبان فى ملعب له . وهذه القصيدة من أجلّ ما قال ابن الرومى من الشعر ، بل من أجلّ ما قال شاعر من الشعر ، وهى أكبر دليل على أن الشعر الرفيع المقام لا يكون إلا إذا وجدت العاطفة ، وأما الصنعة وحدها فلا تخلق شعراً عالياً . ولابن الرومى قصائد أخرى فى الرثاء تستجاد، منها رثاء يحيى بن عمر العلوى التى مطلعها :

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى مستقيم وأعوج

وفيها يقارن بين ترف العباسيين وبين ما كان العلويون فيه من تشريد واضطهاد . ومما يؤسف له أنه شانها بالفحش الشنيع فى هجاء العباسيين ؛ وهذه القصيدة تذكرنى بقصيدة دعبل الخزاعى الرائعة فى آل البيت وهى أعمق أثراً ومطلعها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات

والذى يقرأ شعر ابن الرومى يرى أنه أشد ذوى الفنون عجزاً عن حبس بعض ما يجول فى خاطره من الخواطر ، وهذا العجز يجعل صاحبه كأنه أسوأ خلقاً ونفساً من الناس ، وهو قد يكون وقد لا يكون ، فإن كل إنسان — كما قال سمرست موام — القصصى الانجليزى فى كتاب (الخلاصة) تخطر على خاطره خواطر السوء حتى على بال القديسين المطهرين الذين كانوا يشكون فى نقاوتهم وطهارتهم بالرغم من أنهم كانوا لا يفعلون ما يدعو إلى هذا الشك؛ وذوو الفنون، بسبب النزعة الفنية إلى تصوير أنفسهم والتعبير عن خواطرها ، قد يعجزون عن كتم هذه الخواطر التى يكتمها غيرهم . وإنى أميل أحياناً إلى الاعتقاد أن قصص المجون فى شعر أبى نواس وابن الرومى لم تحدث حقيقة ولم يفعلوا ما زعموا أنهم فعلوا أو على الأقل بعضها لم يحدث ، وإنما هى خواطر السوء التى تمر بخاطر الناس ويكتمها الناس ويعجز بعض الفنانين عن كتمها بل يصنعون منها قصصاً فخراً بها أو صنعة. وعلى هذا القياس نستطيع أن نفهم قصيدة ابن الرومى التى أولها : (لهف نفسى على رصاص مُذابٍ) أى رصاص منصهر كى يصبه فى فم عدوه حتى يموت ويتشفى بسؤاله عن صحته أثناء ذلك، وهى قصيدة شنيعة. ولكن كم من الناس إذا تألم من عداء رجل ألماً شديداً لا تخطر له مثل هذه الخواطر إذا اشتد به الألم وكان مرهف الإحساس ؟ أما أن يصب الرصاص المنصهر فى فم إنسان فهذه مسألة أخرى، فقد يكون صاحب هذه الخواطر أعجز الناس عن إتيان الشر كما هو أعجز الناس عن كتمان ما يجول بخاطره من خواطر السوء. ولا ننس أن ابن الرومى كان مرهف الإحساس حتى أنه أعد حنجراً مسموماً كى يقضى به على حياته فيما زعموا إذا اشتد به الألم فى الحياة، وقد اشتد واشتد ولم يفعل

عبد الرحمن شكرى

أنت لاتشك

أن الثور عنوان القوة والنشاط وأن الشيخوخة والضعف وهبوط القوى التناسلية هو نتيجة ضعف غددك كما برهن العلم

أفروس

علاج ناجع مركب من غدد الثيران الصغيرة فى حالة نشاطها الجنسى مضمون لتجديد غددك يزيد إفرازاتها ويعيد إليك قوى ابن العشرين . التجربة خير برهان وأفضل من كل شرح ست حبات للسرعة بدون رد فعل وبالمداومة تشفى تماماً وهو الأفضل . لا تقبل لها بديلاً لأنها تفوق جميع ما سبقها من العلاجات . فى جميع الأجزخانات وعند دلار .